الأدب المصري
من الفتح إلى عصر عبد العزيز بن مروان
(21هـ - 65هـ)

صارت مصر ولاية إسلامية منذ دخلها العرب فاتحين سنة إحدى وعشرين للهجرة، بقيادة سيدنا عمرو بن العاص، وتعاقب عليها الأمراء في هذه الفترة من قبل الحجاز والكوفة ودمشق.

أ- الشعر

وقد وُجد الشعر العربي في مصر في تلك الفترة كما وُجد في غيرها من الأمصار الإسلامية الأخرى، ولكن الذي وصلنا منه كان قدرًا قليلًا في كمه، ضعيفًا في تركيبه، لا نستطيع أن نتبين منه خصائص الأدب المصري، ولا سمات البيئة المصرية، وكل ما وجد تقريبًا كان مقطوعات قصيرة، ونكاد لا نجد القصائد إلا نادرًا، وهذا الكم القليل يدلنا على أنه وجد أدب في مصر فيه بعض المعاني المصرية والحوادث المصرية، ويدلنا في جانب منه على تأثره بالبيئة المصرية.

ومن البدهي ألا ننتظر ظهور الشعر العربي في مصر بمجرد أن فتحها العرب؛ فاللغة العربية لم تكن لغة المصريين قبل الفتح، وإنما كانت هنالك اللغة القبطية، التي استمرت في صراع عنيف مع اللغة العربية فترة طويلة، حتى انتصرت اللغة العربية في نهاية الأمر، كما أن أعداد العرب الفاتحين كانت قليلة بالنسبة إلى السكان الأصليين، وطبعي ألا تتعرب مصر في يوم وليلة، أو أن يتقن من يعتنق الإسلام اللغة ويتذوقها كما يتذوقها أصحابها الأصليون، ويحس بجمالها أو بلاغتها وتصبح لديه الفطرة العربية، فينطلق شاعرًا في عشية أو ضحاها.

ولعل ذلك أيضًا راجع إلى أن العرب كانوا مشغولين بالفتح، ومعروف أن شعر الفتوحات يتسم غالبًا بالإيجاز والقصر؛ فهو وليد اللحظة الخاطفة واللمحة السريعة، كما

يتميز بالبساطة وعدم التكلف؛ لما يعترض صاحبه من شواغل الجهاد، فلا وقت عنده للإطالة والتجويد، ويكاد يكون صاحبه مجهولًا.

وربما كان للقبائل العربية التي دخلت مصر أثر في ذلك؛ لأن (أكثر هذه القبائل كانت يمنية، والشعر كما قيل في مصر أقوى منه في اليمن)[1]، ولكن أولى من هذا التعليل لضعف الشعر في مصر – كما يقول د. شوقي ضيف: (أن ما نظم منه لم يسجله الرواة، ولا اهتم أصحابه بتسجيله)[2]، وربما أصاب الشعر في تلك الفترة نوع من الضياع، فلم تبق منه إلا تلك المقطوعات القليلة البسيطة.

هذا بالإضافة إلى (عدم اكتراث المصريين في أول الأمر بدراسة الأدب والعلوم الأدبية؛ بل كان جل اهتمامهم يكاد ينصرف إلى الدراسة الدينية الخالصة؛ مما أضعف رواية الشعر ودراسته في مصر، وسبب ضياع أكثر شعر المصريين)[3].

وربما لم يلق الشعراء من ولاة الأمر تشجيعًا أو حثًّا على قول الشعر، وربما عزف بعضهم عن ذلك؛ لأن أسماءهم كانت مدونة في ديوان الجند، وكانت تجرى عليهم الرواتب الثابتة، فقنعوا بذلك عن الرحيل إلى الولاة ومدحهم.

لهذه الأسباب كلها أو بعضها كان الشعر في مصر من الفتح إلى عهد عبد العزيز بن مروان قليلًا في روايته، ضئيلًا في كمه، ضعيفًا في تركيبه، وما هو إلا مقطوعات قليلة منسوبة – في كثير من الأحيان – إلى شعراء مغمورين.

والحق أن القدر القليل اليسير الذي وصل إلينا من هذه الفترة (لا يكفي لأن نعرف منه خصائص الشعر المصري، ولا نفرق بينه وبين الشعر في الأمصار الأخرى)[4]، ولا تكفي الأبيات القليلة لأن تدلنا دلالة صحيحة (على مدى تأثر الشعر العربي بالبيئة المصرية، وإن

(1) الحياة الفكرية والأدبية بمصر من الفتح حتى آخر الدولة الفاطمية، أ.د محمد كامل حسين، ص 86، ط النهضة، سنة 1959م.

(2) عصر الدول والإمارات – مصر والشام – د. شوقي ضيف، ص 166، ط دار المعارف، سنة 1984م.

(3) أدبنا العربي في عصر الولاة، د. محمد كامل حسين، ص 117/116، ط دار الفكر العربي، بدون تاريخ.

(4) أدبنا العربي في عصر الولاة، د. محمد كامل حسين، ص 116.

obeikandl.com

كانت تدلنا على أنه كان بمصر شعر تأثر بالحياة المصرية)[1]، ولنا أن نذهب - كما ذهب الأستاذ عبد الرزاق حميدة - إلى أن هذه الأبيات (لا تصلح أساسًا للحكم على الشعر عندئذ؛ لقلتها، ولما أصاب بعضها من تحريف جعل من العسير قراءته وفهمه فهمًا صحيحًا)[2] في كثير من الأحيان.

لذلك كله كان لابد أن تمضي فترة طويلة حتى يزدهر الشعر المصري، ويتبلور، وتتضح خصائصه.

ورغم ذلك فإننا لو نقبنا عن الشعر المصري في هذه الفترة فسوف لا نعدم وجود نماذج منه، ولعل أول ما يلقانا من شعر أبيات ارتجزها عمرو بن العاص في فتح حصن بابليون، يشيد فيها بدور القبائل التي اشتركت في ذلك الفتح، يقول فيها:

يـــومٌ لِهَمْـــدَانَ ويـــومٌ للـــصَّدَفْ والمَنْجَنِيـــقُ فِي بَـــلِيٍّ تَخْتلـــفْ

وعمـــــــرٌو يَرْقُـــــــلُ إِرْ قـــالَ الـــشَّيخِ الخَـــرِف [3]

وإذا تركنا هذه الأبيات واجهتها أبيات لشاعر يدعى أبا قبان بن نعيم بن بدر التجيبي، قالها حينما تنازل أحد أفراد تجيب (عبد الرحمن ابن قيسية بن كلثوم السومي) عن داره؛ ليبني فيها المسلمون مسجد الفسطاط، يقول أبو قبان:

وبـــابليونُ قـــد سَـــعِدْنَا بفتحِهـــا وحُزْنَـــا لعمـــرِ اللهِ فيئًـــا ومغْـــنَمَا

وقيْـــسِيَّةُ الخـــيرِ بـــنُ كلثـــومَ دارُه أبـــاحَ حِمَاهَـــا للـــصلاةِ وســـلَّما

فكـــلُّ مُـــصَلٍّ في فِنَانَـــا صـــلاته تعارفَ أهلُ المِصرِ ما قلتُ فاعْلَمَا[4]

(1) في الأدب المصري الإسلامي، د. محمد كامل حسين، ص 116، ط الاعتماد، بدون تاريخ.

(2) الأدب العربي في مصر من الفتح إلى الفاطميين، عبد الرزاق حميدة، ص 134، ط الأنجلو، سنة 1951م.

(3) فتوح مصر، ابن عبد الحكم، ص 62، تحقيق شارلز توزي، ط1، الهيئة العامة لقصور الثقافة، سنة 99 ط1، وينظر تحقيق: عبد المنعم عامر، ص 93، وهمدان وبلي والصدف: قبائل عربية اشتركت في فتح مصر مع عمرو بن العاص، انظر: البيان، المقريزي، ص 25، والمنجنيق آله حربية كانت تستخدم في فتح الحصون.

(4) الخطط للمقريزي، ج 4، ص 5، نشر مكتبة الآداب بالقاهرة، سنة 1996.

=

وتقابلنا بعد ذلك أبيات قيلت على لسان الجماعة المصرية التي اشتركت في مقتل سيدنا عثمان بن عفان، وكان هواها مع علي، فدخلت مصر وهي تقول:

خُـذْهَا إليـكَ واحـدزَنْ أبـا حـسنْ إنَّـا نُمـرُّ الحـربَ إمـرارَ الرسَـنْ

بالسيفِ كي تُخْمَد نيرانَ الفتنْ [1]

وما بين أبيات أبي قبان وأبيات الجماعة المصرية لا نكاد نعثر إلا على بيت واحد لشاعر يبدو أنه اشترك مع عبد الله بن سعد في غزوة الأساود، وكان ذلك سنة إحدى وثلاثين للهجرة، حينما بلغ دملقة، يقول هذا الشاعر:

لَمْ ترعينِـي مِثْـلَ يـومِ دُمْقُلَـهْ والخيـلُ تَعـدُو بالـدُّروعِ مُثْقَلـهْ [2]

ويواجهنا بعد ذلك بيت لعمرو بن العاص، أنشده لمعاوية حين ولاه مصر، يقول فيه:

فـإنْ تُعطِنـي مِـصْرًا فـأربح بـصفقةٍ أخـذت بهـا شـيخًا يـضرُّ وينفـعُ [3]

ومن المعروف أن قبائل متعددة قد نزل بعض أفرادها أرض مصر، ولعل أهم قبيلة نزلت مصر هي قبيلة هذيل [4]، وكانت من أفصح القبائل.

=

ويستشف من هذه الأبيات أن قبيلة تجيب كان لها شرف الاشتراك في فتح حصن بابليون.

وهناك بيت لأبي مصعب البلوي يشير إلى تصدق ابن قيسية بمنزله لبناء المسجد، يقول فيه مخاطبًا ابن عبد الرحمن بن قيسية:

وأبـــوك ســـلَّم دارَه وأباحَهـــا لجبـــاهِ قـــومٍ ركَّـــعٍ وســـجُودِ

(1) الولاة والقضاة، الكندي، ص 18، ط بيروت سن 1908.

(2) الولاة والقضاة، الكندي، ص 12.

(3) المغرب في حلى المغرب، ابن سعيد الأندلسي، تحقيق د. شوقي ضيف وآخرين، القسم الخاص بمصر، ص 14، ط جامعة فؤاد الأول، سنة 1953، ط الذخائر – الهيئة العامة لقصور الثقافة، سنة 2003م.

(4) **هذيل:** قبيلة عربية مشهورة من مُضر، كانت منازلها بين الطائف ومكة والمدينة في البقاع الجبلية، وقد قيل إنهم أشعر القبائل العربية، وقيل: إذا فاتك الهذلي أن يكون شاعرًا أو ساعيًا أو راميًا فلا خير فيه، وقد نزلوا في مصر بأرض الصعيد.

obeikandl.com

وإذا التفتنا إلى هذه القبيلة وجدنا أنها تنقسم ثلاثة أقسام: قسم بقي في الجزيرة العربية بعد أن انتقل إخوانه إلى مصر، وقد غلب على هذا القسم الحزن، وأخذ يصدر الشعر باكيًا إخوتهم، الذين تركوهم وهاجروا إلى مصر، وقسم عاش متنقلًا يفد إلى مصر بين فترة وأخرى، يمدح الأمراء وينال العطاء، وقسم ثالث عاش في مصر، وصار من أبنائها، واستمر يقول ما كان يقوله من شعر، وهذا هو القسم الذي يهمنا في الدراسة المصرية.

ولحسن الحظ أن قبيلة هذيل - كما أشرنا من قبل - كانت من أفصح القبائل العربية، ومن أكثرها شعرًا، وأن شعرها قد حفظ لنا، فلم يضع ضمن ما ضاع من شعر القبائل العربية الأخرى.

وعلى الرغم من التقسيم الذي أجريناه على شعر هذيل، فإننا لا نستطيع أن نفرق - تفرقة يقينية - بين القسمين الثاني والثالث؛ لأنهما قالا شعرًا في مصر، وذكرا فيه أشياء ومواضع مصرية؛ ولذلك لا نستطيع أن نضع حدًّا فاصلًا بين الوافد والمقيم منهم على الدوام، ولكننا نستطيع أن نحكم على مجموعة من شعرهم بأنها من إنتاج وافد، ومجموعة بأنها من إنتاج مقيم؛ لأن بعض أخبارهم وصلت إلينا.

وإذا درسنا المجموعة المصرية من الشعر الهذلي، وجدنا معظمها من إنتاج رجلين، هما أبو العيال الهذلي وبدر بن عامر.

وقد وصلت إلينا قصيدة من أبي العيال [1] تصف إحدى المعارك التي اشترك فيها، ويرجح أنه قالها في حرب الإسكندرية الثانية سنة 25هـ، وفيها يخاطب معاوية بن أبي سفيان على شكل رسالة يقول في أبيات منها:

أَبْلِغْ معاويةَ بنَ صخْرٍ آيةً ... يَهْوِي إِليه بِهَا البريدُ الأعجلُ

(1) أبو العيال الهذلي شاعر هذلي فصيح، وقد عرف بذلك لقوله:

فمن يك مثلي ذا عيال ومقترا ... من المال يطرح نفسه كل مطرح

انظر: الأغاني، ج 20، ص 167، ط عز الدين، بيروت، وانظر: ديوان الهذليين، ج 1، ص 407، وما بعدها، دار التراث بيروت، تحقيق عبد الستار فراج.

أَنَّـــا لَقِينَـــا بعـــدَكُمْ بـــديارِنَا ... مِـنْ جانـبِ الأَمْـرَاجِ يومًـا يُـسْأَلُ
أمـرًا تـضيقُ بـهِ الـصُّدورُ ودونَـه ... مُهَـجُ النفـوسِ ولـيسَ عَنْـهُ مَعْـدِلُ
في كـلِّ مُعـتَرَكٍ تَـرى منَّـا فتًـى ... يَهـوِي كعَـزْلاءِ المـزادةِ تُزْغِـلُ
وتـرَى الرِّمـاح كـأنَّما هـي بيْنَنَـا ... أشـطانُ بئـرٍ يُوغِلُـونَ ونُوغِـلُ [1]

وقد كان لأبي العيال الهذلي مع بدر بن عامر مناقضات شعرية، وربما كانت هذه المناقضات هي السبب في حفظ اسمه إلى اليوم.

وفن النقائض فن قديم، كان في الجاهلية، وأسهم فيه الهذليون أنفسهم، ولكن النقائض التي دارت بين هذين الرجلين لم تأخذ الصورة التي نعرفها في نقائض جرير والأخطل والفرزدق؛ لأن كل نقيضة عند هذين الرجلين كانت تتألف من أبيات، ولم يحاول الشاعر فيها أن ينقض جميع المعاني التي أتى بها سابقه، كما كان يفعل الشعراء الأمويون، وإنما كان همه نقض المعنى الأساسي وحده، ومن هذه النقائض قول بدر بن عامر:

أقْـسَمْتُ لا أَنْـسَى مَنِيحَـةَ واحـدٍ ... حتَّـى تخـيَّط بالبيـاضِ قُـرُونِي
حتَّـى أصـيرَ لِمُـسْكَنٍ أثْـوِي بِـه ... لقَـرارِ مُلْحَـدةِ العَـدَاءِ شَـطُونِ
ومَنَحْتَنِـي جَـدَّاءَ حِـينَ منحتَنِـي ... شحْـصًا بمَائِلَـةِ الحِـلابِ لَبُـونِ
وحَبوتُـكَ النُّـصْحَ الـذي لا يُـشْتَرَى ... بالمـالِ فـانظرْ بعـدُ مَـا تحْبُـونِي [2]

الذي يرد عليه أبو العيال قائلًا:

أقْـسَمْتَ لا تَنْـسَى مَقـالَ قـصيدةٍ ... أبـدًا فـمَا هـذَا الـذي يُنْـسِينِي

(1) ديوان الهذليين، ج 1، ص 433، وما بعدها.
(2) ديوان الهذليين، ج 1، ص 413 – 416، وانظر: الأغاني، ج 1، ص 167 – 168.
ويلاحظ اختلاف في رواية بعض الكلمات.

وَلَسَوْفَ تَنْسَاهَا وتعلمُ أَنَّهَا تَبَعٌ لآبيةِ العِصَابِ زَبُونِ
وَمَنَحْتَنِي فَرَضِيتَ حِينَ منحتَنِي فَإِذَا بَهَا وأبِيكَ طيفُ جُنُونِ

وإذا نظرنا إلى هاتين المقطوعتين من وجهة نظر فن النقائض نجد أنهما قد اتحدتا في الوزن والقافية (الكامل/ النون)، وأن كلًّا منهما ترد على الأخرى، ولكن الرد هنا نجده موجهًا إلى الرأي العام، بينما كانت النقيضة الأموية تحاول أن ترد على كل المعالم التي أوردها الشاعر الأول، سواء أكانت فخرًا أم هجاء؛ بل في الغزل أحيانًا.

ولكن الشاعرين الهذليين لم يفعلا ذلك؛ فنقائضهما إذن تتحلى ببعض صفات النقائض لا كلها، وربما كان ذلك هو الذي دفع أبا الفرج الأصفهاني إلى أن يهمل بقية نقائض الشاعرين، ويقول: "ولهما في هذا المعنى نقائض طوال يطول ذكرها، وليست لها طلاوة إلا ما يستفاد في شعر أمثالهما من الفصاحة[1].

ويهمنا من هذه النقائض والأشعار التي قالها عمرو بن العاص وغيره، دلالتها التي تبطل بعض الآراء في الشعر المصري؛ لأنها تدل على أن العرب الذين اتخذوا مصر موطنًا لم يكفوا عن قول الشعر، وتلك نصوص مؤيدة لما نذهب إليه من أن العرب الذين أقاموا في هذه المنطقة واصلوا نظم الشعر كما كانوا ينظمونه في مواطنهم القديمة، ولم يحسوا تغييرًا في مواهبهم الشعرية، وأن السبيل لم تنقطع بهم عن قول الشعر.

وإذا سرنا مع الشعر المصري خطوة أخرى، وجدنا بعضه من وحي الأحداث العامة، وذلك مثلما نرى عابد بن هشام الأزدي، الذي يمدح الوالي مسلمة بن مخلد، حينما قام بتجديد المسجد الجامع بالفسطاط، وبناء منار المسجد، يقول ابن هشام الأزدي (كان ذلك سنة 53هـ):

لقد مُدَّت لِمَسْلَمَةَ الليالي على رغِم العُدَاةِ معَ الأمَانِ
وساعدَهُ الزمانُ بكلِّ سعدٍ وبَلَّغَه البعيدَ مِنَ الأمَاني

(1) الأغاني، ج 2، ص 167.

لقد أحكمْتَ مسجدَنا فأضْحَى كأحسنِ مَا يكونُ من المَبَانِي
كأنَّ تجاوبَ الأصداءِ فيه إذا مَا الليلُ أَلْقَى بالجِران
كصوتِ الرعدِ خالطَه دَوِيٌّ وأرْعَبَ كلَّ مختطَفِ الجنَانِ (1)

ومن الأشعار التي تشير إلى بعض الأحداث العامة في هذه الفترة قول ابن أبي زمزمة، الذي يذكر فيه تصدي الوالي عبد الرحمن بن جحدم لمروان بن الحكم، وكان قد حفر ابن جحدم خندقًا حول الفسطاط لحمايتها، ودارت المعركة بين الفريقين سنة 64هـ، يقول ابن أبي زمزمة:

وما الجِدُّ إلا مثلُ جِدِّ ابنِ جَحْدَمِ وما العزمُ إلا عزمُهُ يومَ خَنْدقِ
ثلاثونَ ألفًا هُمْ أثَارُوا تُرَابَه وَخَدُّوه في شهرٍ، حديثُ مُصَدَّقِ (2)

وثمة أشعار أخرى تشير إلى المعارك التي دارت بين مروان بن الحكم وبين المصريين.

ولكن لا يجب أن نرضى رضًى تامًّا بالحكم المطلق الذي يقول إن الشعر المصري كله كان من وحي الأحداث العامة، فهناك مقطوعات شعرية قيلت في الهجاء والرثاء، ولم توجه إلى الخلفاء أو الأمراء، ومن ذلك قصيدة لشاعر يدعى أبا مصعب قيس بن سلمة البلوي، يهجو فيها بعض أشراف مصر (قيس بن كليب، وعائذ بن ثعلبة البلوي، وكريب بن أبرهة)، يقول أبو مصعب البلوي:

وظلْتُ أُنادِي اللَّكْعَاءَ قَيْسًا ليُدخِلَنِي وقدْ حَضَر الغدَاءُ
وليسَ بها جدِ الجدَّاتِ قيْسٌ ولكنْ حضر مياتُ قِمَاءُ
أكلِّم عائدًا ويَصُدُّ عَنِّي ويمنعُه السلامَ الكبرياءُ

(1) خطط المقريزي، ج 4، ص 7.

(2) الولاة والقضاة، ص 42، 43.

وجُـــرْفٌ قـــدْ تهـــدَّمَ جانِبَـــاه كُرَيْـــبٌ ذاكـــمُ الـــبَرِمُ العَيـــاءُ[1]

ويتبين لنا مما قال هذا الشاعر أن السبب الذي دعاه إلى الهجاء ليس عامًّا، وإنما هي أمور شخصية بينه وبين هؤلاء الرجال الذين صب عليهم هجاءه، كما يتبين لنا أيضًا أن الشاعر كان يتمتع بموهبة بارزة في السخرية، وأنه استطاع أن يستخدم موهبته تلك في هجاء هؤلاء.

ويمكن لنا بعد هذه الإطلالة السريعة على الشعر في ذلك العصر، أن نخرج ببعض التصورات الآتية:

1- شعر تلك الفترة ذهب في ثلاثة أقسام:

أ- شعر سياسي: يغلب عليه المدح والهجاء، فالشاعر عندما لا يرضى عن الوالي، أو عن حدث من الأحداث كان يهجو، وعندما يرضى كان يمدح، ويمكن أن نضيف إلى هذين اللونين الرثاء، الذي قيل في رجال وقعوا صرعى الأحداث، أو شهداء المقاومة الموجهة ضد الولاة أو الخلفاء، وخير ما يمثل لنا هذا اللون السياسي: الأبيات المنسوبة إلى عمرو بن العاص، والأبيات التي أنشدها الوفد المصري بعد مقتل سيدنا عثمان بن عفان، وقصيدة أبي العيال في حرب الإسكندرية، ومديح ابن هشام الأزدي لمسلمة بن مخلد.

ب- شعر قبلي: ونضع فيه ما كان بين بدر بن عامر وأبي العيال الهذلي من نقائض؛ لأن السبب فيها قبلي، وهو النزاع بين البطون المختلفة من هذيل.

ج- شعر ذاتي شخصي: وهو قليل إذا قيس بالقسمين السابقين، ويندرج تحت هذا اللون قصيدة أبي مصعب البلوي؛ إذ كان الهجاء الذي أصدره في قصيدته يعود إلى خلافات شخصية.

(1) فتوح مصر، ص 169، ط 1، الهيئة العامة لقصور الثقافة، سنة 1999م.

2- كان الشعراء الوافدون من عوامل ظهور الشعر المصري وتطوره، وكانوا بمثابة مدرسة غير مباشرة لتعليم الشعر وإنشاده، وقد ذكرت لنا مصادرنا أنه قد وفد إلى مصر ضمن القبائل العربية في هذه الفترة أكثر من عشرين شاعرًا.

3- لا نكاد نجد في هذه الفترة شعرًا له قيمة إلا أمثال هذه المقطوعات التي رصدناها هنا.

ب- النثر

في هذه الفترة لا نكاد نجد نثرًا فنيًّا بالمعنى الدقيق إلا نادرًا؛ فاللغة العربية في محيط ضيق، لا يتحدث بها إلا قبائل العرب وبعض الموالي، وكانت مصر في هذه الفترة ولاية تابعة للخلافة في المدينة أو الكوفة أو دمشق، ولم يكن للولاة سلطة تامة في شئون البلاد إلا بعد مراجعة مركز الخلافة، كما أن التدوين لم يكن قد بدأ بعدُ، ومن ثم فإننا لم نقع على ما كنا نتمنى من النثر، وهذا ما يدفعنا إلى المرور سريعًا على حياته آنذاك، ولكن يجب أن نشير إلى أن المصادر قد أسعفتنا ببعض من فنونه، مثل الخطب والوصايا والقصص والرسائل، وسوف نلمح إلى كل نوع، ونلم به إلمامة سريعة.

1- **الخطابة:**

لا بد أن توجد الخطابة أينما يحل المسلمون، والحق أن العرب كانوا في حاجة ماسة إليها في هذه الفترة؛ فالقائد لا بد أن يقف خطيبًا في جنوده، يبث فيهم الحماس، ويدعوهم إلى الجهاد، ويبعث فيهم الحمية، ويثبت قلوبهم، ويهون من شأن عدوهم، ويذكرهم بالسبب الذي خرجوا من أجله، وبأن هناك إحدى الحسنيين تنتظرهم؛ النصر أو الشهادة.

هذا بالإضافة إلى أن الجمعة كانت فرصة عظيمة مواتية للخطابة في كل أسبوع، وكان الخطيب في خطب الجمعة يتحدث في أمور الدين ومسائل الشرع، ويعظ ويذكر، ويوضح الشئون العامة للمسلمين، وإذا دعت الحاجة إلى الخطابة في أية لحظة لا بد أن يقف الخطباء والوعاظ والقواد، يخطبون ويذكرون ويعظون.

وقد كان قائد الفتح العظيم عمرو بن العاص أول خطباء العرب بالديار المصرية (وكان له في مصر صفة الحاكم والقائد والإمام)[1]. وقد تنوعت خطابته ما بين حربية وسياسية ودينية، وتعددت فيها بعد، ولكن ما بقي منها قليل.

ولعل خطبة سيدنا عمرو بن العاص في أول جمعة قالها في المسجد الجامع بعد أن استتب له الأمر، تعد من أطول الخطب التي حفظت لنا من تاريخ الولاة بمصر وأشملها، ومن الأجدر أن نورد منها مقتطفات؛ لنعلم إلى أي مدى وصلت إليه الخطابة آنذاك.

يقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - بعد أن حمد الله وأثنى عليه، وصلى على النبى ﷺ، ووعظ الناس، وأمرهم ونهاهم:

- "يا معشر الناس: إياي وخلالا أربعًا؛ فإنها تدعو إلى النصب بعد الراحة، وإلى الضيق بعد السعة، وإلى المذلة بعد العزة، إياي وكثرة العيال وانخفاض الحال، وتضييع المال، والقيل بعد القال في غير درك ولا نوال، ثم إنه لا بد من فراغ يئول إليه في توديع جسمه، والتدبير لشأنه، وتخليته بين نفسه وبين شهواتها، ومن صار إلى ذلك فليأخذ بالقصد والنصيب الأقل، ولا يضيع المرء في فراغه نصيب العلم من نفسه، فيكون من الخير عاطلًا، وعن حلال الله وحرامه غافلا".

- "يا معشر الناس ... على الراعي حسن النظر، فحي لكم على بركة الله إلى ريفكم ... وأربعوا خيلكم وأسمنوها وصونوها وأكرموها؛ فإنها جنتكم من عدوكم، وبها مغانمكم وأثقالكم، واستوصوا بمن جاورتم من القبط خيرًا ...".

- "حدثني عمر أمير المؤمنين، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: إن الله سيفتح عليكم بعدي مصر، فاستوصوا بقبطها خيرًا؛ فإن لكم منها صهرًا وذمة".

- "وحدثني عمر أمير المؤمنين، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: إذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا فيها جندًا كثيفًا؛ فذلك الجند خير أجناد الأرض، فقال له أبو بكر: ولم يا رسول الله؟ قال لأنهم وأزواجهم في رباط إلى يوم القيامة".

(1) الأدب العربي في مصر من الفتح الإسلامي إلى الفاطميين، عبد الرزاق حميدة، ص 20، ط الأنجلو 1951م.

- "فاحمدوا الله معشر الناس على ما أولاكم ... ولا يقدمن أحد منكم ذو عيال على عياله إلا ومعه تحفة لعياله على ما أطاق من سعته أو عسرته، أقول قولي هذا، وأستحفظ الله عليكم" [1].

وأتى حين من الدهر على مصر توالت فيه الأحداث، وثارت الفتن، فنشطت الخطابة، وقد حفظت لنا كتب التاريخ بعضًا من هذه الخطب، مثل خطبة قيس بن سعد، الذي تولى مصر من قبل سيدنا علي ابن أبي طالب، وخطبة لمحمد بن أبي بكر، كما حفظت لنا المصادر حوالي ست خطب لعتبة بن أبي سفيان، الذي تولى مصر من قبل أخيه معاوية بن أبي سفيان، وكان عتبة آخر الخطباء الذين حفظت لهم خطب من هذه الفترة.

(ولكن الخطابة لم تمت بموته؛ فدواعيها ظلت موجودة، وولي أمر الناس رجال ذو لسن وفصاحة) [2].

ومن ثم لا نستطيع أن نصدر حكمًا سليمًا على قوتها أو ضعفها واتجاهاتها وتنوعها، وإن كنا نعرف أن الخطابة الدينية والحربية – لا شك أنها - وجدتا، وقد أوجدتها الأحداث التي مرت بمصر في تلك الفترة.

ومن الخطب التي وصلت إلينا من تلك الفترة خطبة لعتبة بن أبي سفيان، يقول فيها: "يا أهل مصر، قد كنتم تعذرون ببعض المنع منكم لبعض الجور عليكم، وقد وليكم من إن قال فعل، فإن أبيتم درأكم بيده، فإن أبيتم درأكم بسيفه، ثم جاء في الآخر ما أدرك في الأول، إن البيعة شائعة لنا، عليكم السمع ولكم علينا العدل، وأينا غدر فلا ذمة له عند صاحبه" [3].

(1) فتوح مصر، ابن عبد الحكم، ص 190، 191، تحقيق: عبد المنعم ماجد.
(2) الأدب العربي في مصر، عبد الرزاق حميدة، ص 35.
(3) الولاة والقضاة، ص 35، وانظر: النجوم الزاهرة، ج 1، ص 124.

obeikandl.com

2- الوصايا:

– الوصايا نوع من أدب المخاطبة، غايتها النصح والإرشاد، وتقديم الخبرة والتجربة، وهي تدعو إلى التبصر في الأمر، والروية وحسن الخلق، وتحث على الفضيلة، وتنهى عن الرذيلة.

– وقد تكون الوصية شعرًا أو نثرًا، وقد تكون لجماعة أو لفرد، وتكون للغائب والحاضر، وتكون قولًا أو كتابة.

وقد حفظت لنا بطون الكتب شيئًا من الوصايا من ذلك العهد، ولكنها كانت قليلة شحيحة، يغلب عليها الإطناب.

ومن وصايا هذه الفترة: وصية قيس بن سعد بن عبادة لمحمد بن أبي بكر، يقول قيس:

"إنه لا يمنعني نصحى لك ولأمير المؤمنين عزله إياي، ولقد عزلني من غير وهن ولا عجز، فاحفظ عني ما أوصيك به يدم صلاح حالك: دع معاوية بن حديج ومسلمة بن مخلد وبسر بن أبي أرطأة، ومن ضوى إليهم على ما هم عليه نكشفهم عن رأيهم، فإن أتوك ولم يفعلوا فاقبلهم، وإن تخلفوا فلا تطلبهم، وانظر هذا الحي من مضر؛ فأنت أولى بهم مني، فألن لهم جناحك، وقرب عليهم مكانك، وارفع حجابك، وانظر هذا الحي من مدلج، فدعهم وما غلبوا عليه يكفوا عنك شأنهم. وأنزل الناس من بعد على قدر منازلهم، وإن استطعت أن تعود المرضى وتشهد الجنائز فافعل؛ فإن هذا لا ينقصك ..." [1].

3- القصص:

ظهر القصص في مصر أول ما ظهر على يد القاضي الزاهد القاص سليم بن عتر التجيبي".

وقد قام بهذه المهمة – كما يشير المؤرخون إلى ذلك – في سنة ثلاثين [2] للهجرة، وكان قاص الجند في عصر عمرو بن العاص.

---

(1) الولاة والقضاة، ص 27.

(2) انظر: حسن المحاضرة، ج 1، ص 295.

وكان القصاص في ذلك العهد يجلسون في المساجد، وقد تحلق الناس حولهم، وهم يقصون عليهم حكايات الأمم الغابرة والأيام والحروب، والقصص الديني؛ لإعطاء العظة والعبرة، وغالبًا ما كان يحدث ذلك عقب صلاة الصبح والمغرب.

ومن أشهر ما روي من قصص، قصة سيدنا عمرو بن العاص والكرة، التي تشير إلى أن سيدنا عمرو بن العاص قد زار مصر في الجاهلية وبشر بفتحها وولايتها، وأنه سيكون له فيها مكان علي مرموق[1]، ومن تلك القصص قصة اليمامة والفسطاط.

ومهما يكن الأمر، فإن مادة القص قد وجدت في ذلك العصر، وكانت تلك القصص – رغم بساطتها – تتميز بالحبكة، وتهدف إلى التسلية، ونشر القيم، ومحاربة الفساد، والدعوة إلى الفضائل، وتعطي الموعظة، وتفيد الناس في دنياهم وأخراهم، ويغلب عليها الصدق والبعد عن الخرافات.

4- **الرسائل:**

الرسائل نوع من النثر المحرر، الذي يعتمد على التنظيم والترتيب، وصياغة الأفكار صياغة جيدة.

ومعروف أن الرسائل تدور بين طرفين، وقد وجد هذا النوع من النثر الفني في هذه الفترة، فرضته طبيعة الحياة وظروفها؛ إذ لابد من تبادل الرسائل بين الخليفة والوالي من جانب، وبين الوالي والخليفة من جانب آخر، وبين الوالي والموظفين وأمراء الجند من جانب ثالث، وكان يقوم بهذه المهمة رجال عرفوا بالفصاحة والبلاغة، وجودة التعبير، وجمال الصياغة، واتساع المعرفة.

---

(1) فتوح مصر، ج 2، ص 232.

وانظر: الولاة والقضاة، ص 302.

وانظر: المغرب في حلى المغرب، ص 17 وما بعدها. وفتوح مصر، ابن عبد الحكم، ص 76، تحقيق: عبد المنعم عامر.

obeikandl.com

ومما ساعد على ازدهار هذا النوع من النثر وجود ما يشبه ديوان الإنشاء، الذي يتولى تحرير الرسائل والنظر فيها، ومن أوائل الكتاب الذين تولوا هذه المهمة في مصر مجاهد بن جبر، الذي كان كاتبًا مرموقًا منذ بداية عهد المسلمين بمصر، ومن هؤلاء أيضًا وردان مولى عمرو بن العاص.

ومن أوائل الرسائل التي وصلت إلينا من ذلك العصر، رسالة بعث بها عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب، يصف له مصر، يقول فيها: "إن مصر تربة غبراء وشجرة خضراء، طولها شهر وعرضها عشر، يكفنها جبل أغبر ورمل أعفر، يخط وسطها نهر ميمون الغدوات، مبارك الروحات، تجري منه الزيادة والنقصان كجري الشمس والقمر، له أوان تظهر به عيون الأرض وينابيعها، حتى إذا عج عجاجه وتعظمت أمواجه، لم يكن وصول بعض أهل القرى إلى بعض إلا في خفاف القوارب وصغار المراكب، فإذا تكامل في زيادته نكص على عقبه كأول ما بدا في شدته، وطما في حدته، فعند ذلك يخرج القوم ليحرثوا بطون أوديته وروابيه، يبذرون الحب ويرجون الثمار من الرب، حتى إذا أشرق وأشرف سقاه من فوقه الندى، وغذاه من تحته الثرى، فعند ذلك يدر حلابه ويغني ذبابه، فبينما هي يا أمير المؤمنين ورقة بيضاء إذا هي عنبرة سوداء، وإذا هي زبرجدة خضراء، فتعالى الله الفعال لما يشاء"[1].

***

(1) النجوم الزاهرة، ابن تغري بردي، ج 1، ص 32، 33، ط تراثنا، وزارة الثقافة، مصر.

obeikandl.com